وحدة الأمة في القرآن الكريم "تفسير موضوعي"

د. خالد بن موسى الحسني الزهراني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الواحد في ذاته، المتفرد بصفاته، الذي صفى قلوب أوليائه فعبدوه وحده، والصلاة والسلام على محمد المحمود في الكتب السماوية، وعلى آله وأصحابه، الذين أعملوا حجتهم وسيوفهم في أعدائه؛ ليخلص الدين لله، ويكون الشرع له وحده، وبعد:

فإن الحديث عن وحدة الأمة حديث مهم، ومطلب ملح، وبخاصة في هذا الزمن، الذي كثر فيه التفرق والاختلاف؛ لأسباب كثيرة ترجع في أصلها إلى ابتعاد المسلمين عن دينهم مصدر اجتماعهم وقوتهم وعزهم، مما تسبب في ضعف الأمة الإسلامية وهوانها على أعدائها، إلى درجة أن أصبح الأعداء يتلاعبون بها، بل يسوقونها سياق الشاة إلى مذبحها، وهي لا تملك حتى أن تختار طريقة ذبحها أو مكانه، وصدق من قال:

ويقضى الأمر حين تغيب تيـ ـــم ولا يستأمرون وهم شهود

فتوحد المسلمين واجتماعهم لا يكون إلا بتوحدهم على توحيد الله تعالى، وصدق المتابعة لنبيه ﷺ، واعتصامهم بحبل الله المتين، وبعدهم عن مواطن التفرق، وأسباب الاختلاف.

والقرآن الكريم مع السنة النبوية - بشقيها القولي والفعلي المتمثل في السيرة النبوية- هما الطريق الصحيح لعلاج الأمة من كل أدوائها، فمهما حاول من حاول إصلاحها بغير ذلك من المناهج والسبل، فلن يصل إلا إلى زيادة دائها، وبعدٍ بها عن فلاحها وصلاحها.

إن الحديث عن الوحدة، قد يكون عند بعض اليائسين حديث عن أوهام وخيالات؛ لما يرون من تشتت أمة الإسلام إلى دويلات، وتقسم أمة الإسلام إلى جماعات، لا تألوا كل واحدة منها أن تكيل لغيرها الشتائم، وتدبر لها المكائد، ولما يلمسون من هجمة عنيفة على المسلمين؛ لتغييبهم عن حقيقة المعركة، بتمييع هويتهم، وصرفهم عن دينهم.

أما المؤمنون الصادقون، فهو عندهم حديث عن حقيقة وواقع، كان في عز الإسلام نبراسًا مضيئًا، وظلاً وارفًا تفيئه المسلمون، بل حتى غير المسلمين. هو عندهم حديث عن مشروع ضخم سيعيد للأمة وحدتها، ويرد عليها تميزها وتفردها، كما نطقت بذلك نصوص القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ سورة النور [٥٥].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث حذيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: "ثم تكون خلافة على منهاج النبوة"(١)، وفي سنن الترمذي مرفوعًا: "أمتي كالغيث، لا يدرى أوله خير أم آخره"(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، برقم [١٨٤٣٠]، وقد صححه الألباني في الصحيحة برقم [٥].

(٢) كتاب الأمثال، رقم [٢٨٦٩].

لقد مرت الأمة في عقودها الأخيرة بصحوة مباركة، أعادت الأمل في نفوس المخلصين من أبنائها، لكنها لم تسلم من الأمراض التي ألمت بها، ومن الأشواك التي وضعت في طريقها، كان أعظمها وأخطرها على الإطلاق تقسم الأمة إلى جماعات، وتفرقها إلى أحزاب، متنافرة متعارضة، مكنت الأعداء من الانفراد في كثير من الأحيان بالساحة؛ لينفذوا مخططاتهم، وينفثوا سمومهم.

إن الحديث عن السلبيات التي تقع من الجماعات الإسلامية ليس أمرًا سلبيًا، بل هو أمر إيجابي مهم لتصحيح المسار وسد الخلل وتقويم العمل، لاسيما مع الاتفاق على الأصول الشرعية، وتوحد الهدف في نصرة الدين ونفع الأمة، فالدين دين الله، والعباد عباده، وأهل الإصلاح إنما هم أدوات لتحقيق نصرته، فمهما تعددت التسميات، واختلفت الاجتهادات في الفروع، إلا أن الواجب ألا يستهدف بعضنا بالتجريح والسعي للإسقاط، ما دمنا ندور داخل دائرة الاجتهاد. إن الواجب أن تتسع الصدور، وتلتمس الأعذار، فالجنة بحمد الله تسع الجميع، والفيصل الكتاب والسنة، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ.

الدراسات السابقة:

يعد موضوع وحدة الأمة بصورته العامة من المواضيع التي نالت حظًا كبيرًا من عناية العلماء والباحثين، سواء من أفرها بتأليف مستقل، أو تعرض لبيان أهميتها في ثنايا مؤلف له، وبخاصة في الأزمنة القريبة الماضية، بعد سقوط الخلافة العثمانية، وعمل الاستعمار الغربي على تقسيم أمة الإسلام إلى دويلات صغيرة، وفرض التقسيمات الجغرافية، التي ساعدت على التفرق. ومن هذه البحوث على سبيل المثال:

١- الوحدة الإسلامية، لمحمد أبي زهرة رحمه الله.

٢- الوحدة الإسلامية، أسسها ووسائل تحقيقها، لأحمد بن سعد حمدان.

٣- منهج الكتاب والسنة في تحقيق الوحدة الإسلامية، لمحمد بن محمد الأنصاري.

إلا أن الجديد فيما سأتناوله: طريقة العرض؛ إذ سيكون بطريقة التفسير الموضوعي، معتمدًا في ذلك على القرآن الكريم، من غير استغناء عن السنة النبوية؛ إذ هي المفتاح لفهم القرآن. وهذه الطريقة تعتبر – في ظني على الأقل – أبلغ في استيعاب جوانب الموضوع، من خلال جمع الآيات ذات العلاقة، ثم تصنيفها ودراستها.

خطة البحث:

لقد اشتمل البحث في خطته على التالي:

- المقدمة.
- المبحث الأول: وحدة الأمة، ألفاظها في القرآن، ومعانيها في اللغة.
- المبحث الثاني: طريقة القرآن في عرض وحدة الأمة، واشتمل على المطالب التالية:
  - المطلب الأول: وحدة الأصل والخلق.
  - المطلب الثاني: أسس الوحدة ومقوماتها.
  - المطلب الثالث: من أسباب الوحدة.
  - المطلب الرابع: عناية القرآن بالوحدة.
  - المطلب الخامس: آثار الوحدة وثمارها.
- الخاتمة.
- الفهارس والمصادر.

ورغبة مني في المشاركة بجهد المقل، أحببت أن أقف مع شيء من الهدايات القرآنية، والإشارات النبوية، حول هذا الموضوع المهم، الذي أسأل الله تعالى أن يعينني على تناوله وفي ما بَيَّتُ له من خطة؛ إذ هذه نواة لبحث متكامل في الموضوع؛ ليرى النور في القريب العاجل إن شاء الله تعالى، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

حرر في مكة المكرمة حرسها الله

١٤٣٢/٦/٢٥هـ

* * *

المبحث الأول
وحدة الأمة، ألفاظها في القرآن، ومعانيها في اللغة

بالتأمل في الآيات القرآنية التي عرضت موضوع وحدة الأمة في القرآن الكريم، يلحظ أنها تدور حول لفظين في كتاب الله تعالى، دلا بلفظهما عليها، ولفظين آخرين دلا عليها بضدهما، وبيانها فيما يلي:

أولاً: الوحدة:

وهي مأخوذة من الفعل الثلاثي (وَحَدَ)، قال ابن فارس: "الواو والحاء والدال يدل على الانفراد، ومن ذلك الوحدة، وهو واحد في قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله"[1].

وقال ابن منظور: "حكي سيبويه الوحدة في معنى التوحد[2]، وقال الراغب الأصفهاني: "الوَحْدَةُ: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة"[3]، ثم ذكر رحمه الله الأوجه الستة التي يستعمل فيها هذا اللفظ إلى قال: "الرابع: ما كان واحدًا لامتناع التجزيء فيه، إما لصغره كالهباء، وإما لصلابته كالألماس".

وقال د/ محمد الأنصاري: الوحدة تأتي بفتح الواو وبكسرها، فبالفتح (الوَحْدَة): الانفراد عن الأصحاب والبينونة عنهم، وبالكسر (الوِحْدَة): الاتحاد، كما تقول: وحدة الأمة[4].

فاتضح بما سبق معنى الوحدة، وأنها الاتحاد بين أجزاء شتى يمتنع أن تكون متجزئة، وامتناعها في وحدة الأمة امتناع شرعي، كما أن امتناعها في الألماس على سبيل المثال

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١٠٨٤)

(٢) لسان العرب (٢٦٥/١٦).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (٨٥٧).

(٤) انظر: منهج القرآن والسنة في تحقيق الوحدة الإسلامية (١٩/١).

امتناع واقعي.

ثانيًا: اعتصموا:

قال ابن فارس: "العين والصاد والميم أصل واحد صحيح، يدل على إمساك ومنع وملازمة"(١).

وقال ابن منظور: "اعتصم فلان بالله: إذا امتنع به ... والاعتصام: الامتساك بالشيء"(٢).

وقال الراغب: "الاعتصام: التمسك بالشيء، قال: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً﴾"(٣).

والاعتصام في القرآن مع دلالته على معناه في أصل اللغة، من التمسك بالشيء المعتصم به، إلا أنه دل كذلك في نفس الموطن على معنى التوحد على ذلك المتمسك به؛ لذا جاء النهي عن التفرق بعد ذكره، كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ سورة آل عمران [١٠٣].

أما اللفظين اللذين دلا بضدهما على معنى الوحدة فهما:

أولاً: افترقوا:

مأخوذ من الفعل الثلاثي (فَرَق)، قال ابن فارس: "الفاء والراء والقاف أصيل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين"(٤).

وقال الراغب: الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال. والفرق: القطعة المنفصلة منه، ومنه: الفرقة للجماعة المتفردة

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٧٧٩).

(٢) لسان العرب (١٠/١٦٧).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (٥٧٠).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٨٣٣).

من الناس، والفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين[1].

وقال الفيروزآبادي: "تفرق تفرقًا وتفراقًا: ضد تجمع، كافتراق واتفق وانفصل"[2].

فالتفرق الشتات بعد الاجتماع، أو فيما من شأنه الاجتماع، وقد تكررت هذه الكلمة في القرآن دالة على وحدة الأمة في سياقات متعددة، أبلغها في ثوب الإخبار عن تفرق أهل الكتاب، متجاوزين ما أمروا به من الوحدة والاجتماع؛ نهيًا للأمة المحمدية من سلوك سبيلهم أو انتهاج طريقتهم.

ثانيًا: الاختلاف:

مأخوذ من الفعل الثلاثي (خَلَفَ)، قال ابن فارس: "الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة؛ أحدها: أن يجئ شيء بعد شيء يقوم مقامه ... وأما قولهم: اختلف الناس في كذا، والناس خلفةٌ، أي: مختلفون، فمن الباب الأول؛ لأن كل واحد منهم ينحي قول صاحبه، ويقيم نفسه مقام الذي نحاه"[3].

وقال الراغب: الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو في قوله، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كل ضدين مختلفين، وليس كل مختلفين ضدين. ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة[4].

فدل على النهي عن الاختلاف المؤدي إلى التفرق والتنازع، كما وقع من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ**

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم (٦٣٢).

(٢) القاموس المحيط (٣/٣٧٤).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣٢٧).

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٢٩٤).

﴿الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة آل عمران [١٠٥]، وهو أمر للأمة بالوحدة والاجتماع.

* * *

المبحث الثاني
طريقة القرآن في عرض وحدة الأمة

المطلب الأول: وحدة الأصل والخلق:

آدم عليه السلام أبو البشر جميعًا، فقد خلق الله تعالى الناس من أصل واحد، خلقهم جميعًا من نفس واحدة، من أبيهم آدم، فاستووا جميعًا في أصل الخلق، لا فرق بينهم، ولا فضل لأحدهم في ذلك، فأبيضهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم في ذلك سواء.

والقرآن الكريم حين يذكر بهذه الحقيقة في فواتح سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾ سورة النساء [١]، يذكرهم بأصلهم، وأن الأصل واحد، وهو أبوهم آدم عليه السلام الذي كرمه الله بما كرمه به، من خلقه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له تشريفًا وتكريمًا، ما يستجيش في نفس المتأمل الرغبة الجادة في العود إلى هذا الأصل، والمحافظة على أسباب التكريم والتشريف، والقيام بحق العهد الذي سار عليه الأب الأول، والتوحد عليه.

إن المتأمل في هذه الحقيقة يفيض في نفسه معنى التقارب والتوحد، ويلغي منها كل معنى للتفرق على حساب الأصل. والسياق القرآني إذ يستخدم لفظ الناس في النداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، في هذه الآية وفي غيرها من الآيات[1]؛ ليذكرهم بالأصل الذي اشتركوا فيه، فيستوي في هذا النداء المؤمن والكافر، فيكون وسيلة إلى

---

(١) في عشرين موضعًا، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (٨١٨).

إصغاء حتى غير المسلم له، فضلاً عن المسلم.

كذلك الإشارة إلى أصل الخلق من جهة الفاعل له، وهو الله سبحانه وتعالى، الواحد في ذاته وصفاته وملكه وأمره، في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات [١٣]؛ ففي استخدام لفظ (خلقكم) ما يدل على ذلك، ويشعر بضرورة الوحدة؛ إذ الأصل واحد، والخالق واحد سبحانه وبحمده.

كذلك الأسرة الأولى التي انتشر منها الناس، كانت على الوحدة في التصورات والمبادئ حتى وقع الاختلاف، فبعث الله الأنبياء عليهم السلام في كل حقبة من الزمان وجيل من الناس؛ ليردوهم إلى ذلك الأصل الذي خلقوا عليه، وتلك الوحدة التي فطروا عليها، فاتحدت دعوة الأنبياء عليهم السلام في أصلها، وإن اختلفت تفاصيل شرائعهم، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ سورة البقرة [٢١٣]، وقال ﷺ: "الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"[(١)]، فدعوة الأنبياء واحدة، خلاصتها رد الناس إلى الأصل الذي كان عليه أبوهم آدم عليه السلام، وإن تباعدت أزمانهم وتناءت ديارهم وأوطانهم.

لقد جاء الإسلام مقررًا هذه الحقيقة التي لا جدال فيها، فهذا النبي ﷺ يؤكد على ذلك بقوله: "كلكم بنو آدم، طفَّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، رقم [٣٢٥٩]، وصحيح مسلم، كتاب: الفاضل، باب: فضائل عيسى ابن مريم عليه السلام، رقم [٢٣٦٥].

بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بخيلاً فاحشًا".

قال ﷺ ذلك بعد أن هاجر إلى المدينة، وبدأ في بناء الأخوة الإيمانية، ودولة الوحدة على العبودية لله تعالى؛ ليزيل بذلك غبار العنصرية والتفرقة الذي طرحته الجاهلية على النفوس، فكانت اللبنة الأولى التي تكونت منها الأمة المحمدية خير تجربة طبقت فيها الوحدة كما أرادها الله ﷻ، وكما هي في أصل الخلق؛ فبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي مع أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب سيدا قريش، في بناء منسجم لا يرى أحدهم لنفسه فضلاً على أخيه إلا بالتقوى؛ ليبقى ذلك الأنموذج مثالاً يحتذي في طريقته وَحَدِّه وغايته.

ذكرهم ﷺ بذلك ليقضي على التمييز السخيف الذي تعودت عليه الجاهلية بلا مسوغ من دين أو خلق؛ فالأنثى تدفن حية بلا ذنب، وهي عندهم من سقط المتاع لا ترث وتورث، والعبيد الأرقاء تصادر إنسانيتهم فيذلون ويحتقرون، كما سجل القرآن الكريم صورة من ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سورة النور [٣٣]، وليهدم ذلك البرج العاجي، الذي اعتلته يهود بلا حق، فكانت تفخر على أوباش العرب الأميين كما يعتقدون، وربما نالت من حقوقهم ما تزعم أن ليس عليهم في ذلك حرج؛ لأنهم يتعاملون مع من لا يستحق الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة آل عمران [٧٥].

وفي حديث الفطرة: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه"[1] ما يشعر أيضًا بأصل الخلق، ويدعوا إلى الوحدة على الأصل الذي فطر الله

(١) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ رقم [١٣٥٩].

عليه الناس، وهو الاستعداد للعبودية لله تعالى وإسلام الوجه له.

فأصل الناس واحد، وقد فطروا على فطرة واحدة، كما نطق بذلك الحديث، لكن تختلف بعد ذلك تصوراتهم ومعتقداتهم، وتتشعب طرقهم وتوجهاتهم بحسب ما يعترضهم من تأثير يصرفهم عن الأصل الذي خلقوا جميعًا عليه فيقع الاختلاف، تمامًا كما اختلفت قدراتهم وإمكاناتهم التي زودوا بها ليقوموا بدور الخلافة في الأرض، وليحق الله ﷻ كلمته بالحق.

فالله سبحانه قدر بينهم الاختلاف مع خلقه لهم على أصل واحد؛ لحكمة منه سبحانه؛ ليقوم سوق الامتحان، فيظهر من يطيع الله ممن يعصيه، وهو سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ سورة الشورى [٨].

آيات للتأمل:

- ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ سورة المائدة [٤٨].

- ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ سورة هود [١١٨].

- ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ سورة البقرة [٢٨٥].

- ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة آل عمران [٦٨].

- ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ سورة العنكبوت [٤٦].

المطلب الثاني: أسس الوحدة ومقوماتها في القرآن الكريم:

بعد بيان ما سبق، يلزم المتأمل سؤال ملح، لعله يفرضه عليه واقع تعيشه الأمة اليوم، يحاول فيه البعض الخلط بين الحق والباطل، تأثرًا بدعوات لخلط أديان الناس وعقائدهم، وتصحيح المذاهب الفاسدة، والعقائد الباطلة، زعمًا بأنها تنسب للأنبياء، كاليهودية والنصرانية، مع تكفير الله تعالى لأربابها، وتبرئة الله تعالى لأنبيائها من نسبة ما أحدثه أقوامهم في دينهم من بعدهم.

هذا السؤال هو: هل دعوة الله تعالى للوحدة والاجتماع تكون كيفما اتفق، أم أن الوحدة التي دعا إليها الرسل عليهم السلام، وأمرت أمة الإسلام بها تقوم على أسس تميزها، وأن الحق واحد؟

هذا سؤال مهم، وبخاصة في هذا الزمن، زمن الانفتاح والاتصال، أو كما يسميه البعض: زمن القرية الصغيرة الواحدة. في هذا الزمن تعالت أصوات تدعوا إلى السلام العالمي، وأن يعيش الناس جميعًا تحت مظلة واحدة، بإلغاء جميع الفوارق، حتى تلك الفوارق الدينية التي أتت الشرائع السماوية بتقريرها والتأكيد عليها: ﴿حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ سورة الأنفال [٣٩].

إن الوحدة التي دعا إليها جميع الرسل، وعملوا على بنائها تقوم على أسس ربانية، هي أصل دعوتهم، لا تلتفت إلى الرغبات الذاتية، ولا إلى الشهوات النفسية، ولا إلى النعرات القبلية، أسس قررها الذي خلق النفوس ويعلم ما يصلحها وما يفسدها، فشلت عقول البشرية على مر العصور أن تنتج مثلها، أو حتى ما يقاربها، بل عندما

حاولت لم تستطع أن تنسلخ من المؤثرات البشرية، فأنتجت تلك المحاولات بدل الوحدة مزيدًا من الفرقة والعنصرية، راح ضحيتها ملايين البشر.

بالتأمل في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وسيرته وسيرة الأنبياء قبله، يمكن أن نخلص إلى أهم الأسس التي تقوم عليها الوحدة والاجتماع في دين الله تعالى، والتي تتلخص في التالي:

أولاً: توحيد الله تعالى والاستسلام له:

إن المتأمل في السياق القرآني لقصص الأنبياء من لدن آدم عليه السلام يلحظ قاسمًا مشتركًا بينهم جميعًا، هو اجتماعهم على توحيد الله تعالى، وأمر أممهم بذلك، بل وتربية من آمن منهم على ذلك، فضلاً عن الآيات والأحاديث الصريحة في بيان الأمر بالتوحيد، والدعوة إليه، والاجتماع عليه؛ ففي سورة الأنبياء والمؤمنين بعد أن ذكرت الآيات جملة من الأنبياء، وأنهم جاؤوا لمهمة واحدة، هي تعبيد العباد لربهم سبحانه، وتوحيدهم على ذلك بعد أن تفرقوا واختلفوا؛ بسبب بعدهم عن الأصل الذي وحدهم عليه من سبق من الأنبياء، يأتي التوجيه الرباني بأن هذه أمتكم أمة الأنبياء التي عليها تتوحدون عقيدة ومنهجًا، هي توحيد الله تعالى، وإخلاص العبودية، وصدق الاستسلام له سبحانه، فالرب واحد كما أن المنهج واحد؛ لأنه منه ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ سورة الأنبياء [٩٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ سورة المؤمنون [٥٢].

فالوحدة المطلوبة تقوم على أساس العبودية لله تعالى، وما لم يكن كذلك فلا وحدة بل هي البراءة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ

لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ سورة الممتحنة [٤- ٦].

وفي حديث البراءة من المشركين ما يدل ضرورة على أن الوحدة التي جاء بها الإسلام تقوم على رابطة الدين والعقيدة، وأن الحال عند انتفائهما على الضد من الوحدة، وهو الافتراق والتباعد، قال ﷺ: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين". قيل: يا رسول الله و لم؟ قال: "لا تراءى نارهما"[1].

آيات للتأمل:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة [٢١].

- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة [١٣٣].

- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ سورة آل عمران [٦٤].

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ سورة النحل [٣٦].

- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ سورة البينة [٥].

ثانيًا: تجريد المتابعة للنبي ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم [٢٦٤٥]، والترمذي، رقم [١٦٠٤].

جرت سنة الله سبحانه أن يكون اتصاله بعباده وبيانه مراده منهم، وإيضاح محابه ومساخطه عن طريق رسل كرام، هم خيار الناس وخلاصتهم، يختارهم الله من بين عباده، يصنعون على عينه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سورة الحج [٧٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ سورة الشورى [٥١]، وهؤلاء الأنبياء يخصهم الله بخصائص تناسب المسئولية العظمى الملقاة على عواتقهم، من تبليغ رسالات الله، وإزالة ركام الضلال عن قلوب الناس، بتعبيدهم لله وتوحيدهم على أصل فطرتهم وخلقهم، فمن استجاب لهم فهو الفائز الرابح، ومن أعرض عن دعوتهم وخرج عن وحدتهم فهو الخائب الخاسر.

لقد رسم الله سبحانه طريقًا واحدًا للوحدة ومنهجًا واضحًا لها، هو الالتفاف حول الرسل عليهم السلام، والسير في طريقهم وتبني دعوتهم، وقد ختمت هذه الرسالات بأكمل الرسالات وأتمها، وهي رسالة نبينا محمد ﷺ، فهي ناسخة لما قبلها، فبناء الوحدة واجتماع الكلمة هو في هديه وشريعته، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ سورة النساء [١١٥].

ففي قوله تعالى: (يشاقق) تحذير من المخالفة له ﷺ، وأمر من الله تعالى بتجريد المتابعة، وليس المراد من المشاقة المعاندة والعداوة فقط، بل إن الآية تذهب إلى أبعد من ذلك؛ فمعنى يشاقق: يتخذ شقًا مقابلاً للشق الذي فيه النبي ﷺ، فيدخل في ذلك من اتخذ دينًا أو منهجًا أو اختط طريقًا مخالفًا لما جاء به النبي ﷺ، فضلاً عن المعاندة والمخاصمة. قال ابن كثير رحمه الله: أي من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق،

وتبين له واتضح، سواء خالف نص الشارع، أو ما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا، جازيناه على ذلك بأن نحسن له تلك الطرق التي سلكها، ونزينها له استدراجًا، ثم جعلنا النار مصيره في الآخرة[١].

وفي الحديث: "والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به"[٢]. وفي الحديث الآخر قال ﷺ: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى"، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: "من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى"[٣].

إن في تجريد المتابعة للرسول ﷺ دعوة للأمة وتوجيه لها للتوحد والاجتماع، وذلك عن طريق نبذ الأهواء والاجتهادات المجردة، والتسليم لهذا المنهج الرباني، الذي اختطه لهذا الإنسان العالم بحاله، والخبير بما يصلحه، وهو الله سبحانه الذي خلق الإنسان، وتكفل له بالسعادة إن هو اتبع سبيله الذي جاء به رسوله، وترك سبل الشيطان وطرقه.

قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ سورة طه [١٢٣- ١٢٤].

إن الوحدة لا يمكن أن تكون على أكمل وجه حتى يكون القائد لها والهادي إليها رسول الله ﷺ، المبلغ عنه دينه وشريعته. والسير عليهما ضمان للأمة من التفرق والتشعب والاختلاف؛ لأنها طريق واحد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣٩٣/٢).

(٢) ذكره البغوي في شرح السنة (٢١٣/١).

(٣) أخرجه البخاري، في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم [٧٢٨٠].

سورة الأنعام [١٥٣].

لقد نفى الله الإيمان عمن لم يسلم قياده لما جاء به النبي ﷺ، فحاول أن يضع لنفسه غير منهجه الرباني، قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ سورة النساء [٦٥]، قال الطبري رحمه الله: ليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، وهم يحتكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دعوا إليك، فوربك يا محمد لا يصدقون بي وبك وما أنزلت إليك حتى يجعلوك حكمًا بينهم فيما اختلط بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا، فلا تحرج أنفسهم مما قضيت، ولا تأثم بإنكارها ما قضيت، وشكها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حتى لا يجوز لهم خلافه[١]. وقال السعدي رحمه الله: أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل شيء يحصل فيه اختلاف، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، بكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا، بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن[٢].

فهي تذهب إلى أبعد من مجرد التسليم الظاهر، إلى ضرورة التسليم الباطن ونفي الحرج والضيق من شرعه وحكمه، وتثبت أن الاستسلام ظاهر وباطن، فالذي يجمعهما هو المؤمن، والذي يقتصر على الظاهر دون الباطن هو المنافق، ولذا قال تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/٢٠٠).

(٢) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٨٤).

لقد ضلت البشرية عن هذه الوحدة يوم انحرفت عن هذه الحقيقة الربانية إلى نظم أرضية، أنتجتها زبالات عقول بشرية شرقية أو غربية، أدخلت البشرية في دوامة من الضياع والانحلال والاختلاف. ونجح الاستعمار في نقل ذلك إلى البلاد الإسلامية، ففرض تلك النظم بعد أن قسم البلاد الإسلامية إلى دويلات حدت بحدود جغرافية، استخدمت في تغييب معنى الوحدة الإسلامية، واستبدل هذا المعنى الشرعي العظيم بترسيخ مبدأ الوطنية والمواطنة المرتبطة بتلك الحدود فحسب، وأهملت شريعة الله بتقرير تلك القوانين الوضعية التي جاء بها المستعمر، ولا زالت وللأسف تطبق حتى بعد رحيل المستعمر بآلته العسكرية، فأهملت الشريعة السماوية التي كانت تشعر المسلمين بتوحدهم في المنهج والشرع إلى قوانين خاصة بكل بلد.

آيات للتأمل:

- **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** سورة آل عمران [٣١].
- **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾** سورة النساء [٦٤].
- **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾** سورة الأعراف [١٥٨].
- **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** سورة الحشر [٧].

ثالثًا: الأخوة في الله:

الوحدة والاجتماع التي أمر الله بها، والتي تعيد الإنسان إلى أصله الأول، هي نتاج أخوة إيجابية فاعلة تقوم على رباط الدين والعقيدة، تربى عليها أتباع الرسل عليهم السلام، فكانت كالشجرة العظيمة التي ضربت جذورها في أصول قلوبهم، فأثمرت أخص معاني الأخوة، وهي الحب والنصرة، ملقية كل معنى للوحدة لا يقوم على

أساس الدين والعقيدة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ سورة الحجرات [١٠]، وقال سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ سورة المجادلة [٢٢]، فنفت الآية وجود مؤمن بالله ورسوله حق الإيمان، ومع ذلك يكون توحده وولاؤه لغير الله ورسوله وأوليائه، حتى لو كان ذلك أقرب قريب الوالد أو الولد.

إن الإسلام وهو دين الفطرة، قد راعى الطباع التي جبل عليها الناس، من حب الوالد والولد والأخ والعشيرة، لكن التعبير القرآني تعبير بليغ يتجاوز ظاهر الأمور حتى ينفذ إلى باطنها، فعبر بالموادة التي هي أخص معاني الأخوة، وهي تقديم الولاء والنصرة والمحبة، متجاوزًا مجرد المحبة الفطرية التي لا يؤاخذ الله عليها إلى ذلك المعنى العظيم، الذي لا يجوز أن يكون إلا مع من توحد معك عقيدة ومنهجًا.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ سورة التوبة [٧١]، فقوله: ﴿أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ يشعر المؤمن بمعنى الوحدة التي تربطه بإخوانه المؤمنين، مهما اختلفت أجناسهم، أو تباعدت أزمانهم وتناءت أوطانهم. والمتأمل في آيات الأخوة الإيمانية في القرآن يلحظ كيف أعرضت عن كل قيد، من اجتماع في أرض أو اتحاد في نسب أو اتفاق في شكل، إلى وصف عام يتجاوز الأنساب والأوطان بل حتى الزمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة الحشر [١٠]، فعقبت الآية بعد ذكر المهاجرين والأنصار – تلك اللبنة الأولى في بناء وحدة هذه الأمة – بوصف من جاء بعدهم ممن كان على نهجهم، فعبرت بالاسم الموصول الذي يفيد العموم، فلا يحده زمان ولا جنس ولا مكان.

والنبي ﷺ حين ذكر غربة الإسلام بداية ونهاية فيقول: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود

غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[١]، يصف أهل تلك الغربة الذين يقومون بالدين بأنهم النـــزاع من القبائل، الذين تجمعهم جامعة الدين، وتوحدهم رابطة العقيدة. والمتأمل في الحديث يلحظ معنى مهم، وهو: أن الإسلام وهو يدعو إلى الوحدة لا ينظر إلى كثرة العدد، إنما ينظر إلى وحدة المبدأ وإن قل العدد؛ فالنبي ﷺ يعبر عن غربة الإسلام، مع أن الإسلام لا يقوم إلا بأفراد تتحقق فيهم مبادئه وعقيدته.

إن محبة المؤمن لأخيه المؤمن في الإسلام من أوثق عرى الإيمان؛ فالإسلام وهو يضعها في هذا المقام يحض أولياءه على التوحد والاجتماع.

المطلب الثالث: من أسباب الوحدة والاجتماع:

أسباب الوحدة والاجتماع كثيرة، أشارت إليها نصوص الكتاب والسنة، سأكتفي بذكر أهمها فيما يلي:

أولاً: توحيد مصدر التشريع:

القرآن والسنة هما حبل الله المتين ونوره المبين، وهما السبب الواصل بين السماء والأرض، يعصم الله صاحبهما من التخبط في ظلمات الجهل وغياهب الضلال، وقد أبان الله فيهما كل ما فيه صلاح الأمة ورشادها، وأمر بالرد إليهما عند التنازع والاختلاف، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ سورة النحل [٦٤]، وقال سبحانه: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ سورة النساء [٥٩]، وقال: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى**

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، رقم [١٤٥]، والوصف المشار إليه ورد في رواية ابن ماجة في سننه برقم [٣٩٨٨].

اللَّهِ﴾ سورة الشورى [١٠]، وفي رد الأمور إليهما والإعراض عن غيرهما سبب للتوحد والاجتماع، وحماية للجماعة المسلمة من الاختلاف والتنازع؛ فالمصدر الذي يستقي منه الجميع ويرجعون إليه واحد، كلام رب واحد، وسنة نبي واحد.

وتربية الجيل على هذا الأصل بتعليقه به، هي التربية الصحيحة التي تضمن للأمة التوحد، وتبعد عنها الاختلاف والتنازع، بخلاف ربط الجيل بالقيادات والشخصيات، التي يعرف منها وينكر، ويؤخذ منها ويرد. لكن ينبغي أن يلحظ في هذا المقام أن الرجوع إلى الكتاب والسنة هو بفهم سلف الأمة، من أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام، لا كما ينادي به اليوم بعض المتأثرين ببعض الاتجاهات المنحرفة من تفسير النصوص بما يوافق متطلبات العصر، والإعراض عن تاريخ الأمة وفصلها عن سلفها — ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها — ويكفي للأمة أن تفخر بما حفظ الله من دينها، فهي أمة الإسناد، الذي تفردت به عن سائر الأمم، حفظًا من الله لها ولدينها؛ فهي آخر الأمم وأفضلها.

لقد كانت الأمة مجتمعة يوم كانت لا تأخذ إلا من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فلما بدأت تلتفت عن هذا الأصل إلى علوم وفلسفات مختلفة بدأ فيها الخلل، وظهر فيها الاختلاف والتنازع.

الثاني: وحدة الهدف ووضوحه:

وحدة الهدف تعد جامعة؛ إذ يسعى الكل للوصول إليه وإن اختلفت السبل. فالهدف الذي من أجله أوجد الله العباد هو عبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات [٥٦]، هذا هو الهدف المطلوب من كل فرد أن يحققه. أما هدف الرسل عليهم السلام وأتباعهم من دعواتهم، فهو تعبيد الناس لربهم سبحانه، وتوحيدهم على هذا الأصل الذي فطروا عليه. وهذا

الهدف هو الذي ينبغي أن يكون نصب عين كل داعي إلى الله، تتلاشى في سبيله كل شهوة أو رغبة، سواء كان على مستوى الأفراد أو الجماعات، حتى يكون الدين كله لله، وفي الحديث الصحيح، قال ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله"(١)، فمهما اختلفت الوسائل والطرق التي توصل إلى الهدف فهو أمر محمود، ما لم يكن ذلك السبيل مخالفًا لما جاءت به الشريعة المحمدية.

إن وضوح الهدف سبيل إلى اجتماع الكلمة، فهو يزيل من النفوس رواسب ما قد يكون بين الأفراد أو الجماعات من اختلاف، فاختلاف وجهات النظر فيما يسوغ فيه الاختلاف أمر لابد من وقوعه، تحقيقًا لسنة التنوع والاختلاف، التي قدر الله أن تكون في الاجتماع البشري، وقد وقع بين الصحابة ﷺ، مع اجتماعهم وتوحدهم؛ لسلامة صدورهم وتوحد هدفهم.

إن المتأمل في حال الجماعات الإسلامية اليوم، وما ابتلي به البعض من تصنيف، وما يقع بسببه من افتراق، لا يمت إلى الإسلام بصلة، وضرره على الأمة الإسلامية كبير جدًا؛ إذ أصبح مذمة يستغلها الأعداء في تشويه صورة الإسلام وعرقلة مشاريعه؛ لذا ينبغي على أفراد الأمة وجماعاتها عمومًا، والقيادات المؤثرة فيها خصوصًا، أن تتسع صدورهم للنقد البناء، الذي يخدم في الوصول إلى الهدف الواحد، ذلك الهدف الذي يدعي الجميع أنهم يسعون لتحقيقه.

يقول الشيخ محمد قطب حفظه الله: "لتحذر الجماعات الإسلامية ما هي فيه من تشرذم وتفرق وخصام! ولتتعلم كيف تختلف من دون أن تفترق وتتخاصم، فإنها مأكولة كلها، إن بقيت على ما هي فيه من فرقة، لا يستفيد منها إلا الأعداء"(٢).

---

(١) رواه البخاري في الصحيح، كتاب: الصلاة، وباب: فضل استقبال القبلة، رقم [٣٩٢].

(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر (٢٤٨).

فالعالم الذي بذل جهده ووقته وقعد لتعليم العلم ونشره، والداعية الذي قطع الفيافي والقفار لينشر علمًا وليعلم جاهلاً، والمربي الذي يربي النشأ، والمنفق الذي بذل ماله في سبيل الله، والمجاهد الذي ترك لذائذ الدنيا وهب لساحات الوغي ليرد مغتصبًا أو يغيث ملهوفًا، كل أولئك وغيرهم سواعد بناءة، وعناصر فاعلة، لا تستغني الأمة عن أحدهم، وكلهم محكوم بنصوص الشرع، فيجب عليهم أن يعلموا جميعًا أن الهدف واحد وإن تعددت الوسائل واختلفت السبل، وأن الإسلام الذي جاء بالجهاد ورغب فيه فجعله ذروة سنامه، سبقه بالدعوة والتربية، فكلٌ آخذ بسهم في الإسلام، وإن كان سهم بعضهم أوفى من بعض.

ثالثًا: نبذ الهوى والتعصب:

لقد جاء في القرآن الكريم ذم الهوى، فلم يذكر إلا في سياق الذم. والهوى: ما تدعو إليه النفس من شهوة ولذة، سمي به لأنه يهوي بصاحبه إلى كل داهية في الدنيا، وإلى النار في الآخرة والعياذ بالله[1]؛ فالمذموم منه المخالف للكتاب والسنة مقوض من مقوضات الوحدة الإسلامية، وقد سماه الله إلهًا؛ لأنه قد صار عند متبعه والمنساق خلفه معبودًا استسلم له، فهو وإن لم يسجد له بأعضائه إلا أنه خاضع له حالاً ومعنى، فاتباع الهوى يعمي بصيرة العبد عن فعل الأصلح في حقه وفي حق غيره، حتى إنه ليزين الباطل في عين العبد فيراه عين الحق والصواب، ولربما غلب العبد مصلحة نفسه على مصلحة الجماعة، متجاوزًا الهدف الأسمى في ذلك، اتباعًا لهواه، وتحقيقًا لما تدعوه إليه نفسه الأمارة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (٨٤٩).

الجاثية [٢٣]، قال الزمخشري: فهو مطواع لهوى النفس، يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه، فيستحسن الحجر فيعبده، فإذا رأى ما هو أحسن تركه إليه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى، يعبد كل وقت واحدًا منها، عند ذلك يتركه الله وما اختار، مع علم العبد بوجوه الهداية ومعرفته بأنواع الألطاف المقربة إلى الله[1].

وقد نفى النبي ﷺ الإيمان عمن اتبع هواه المخالف لما جاء به ﷺ فقال: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به"، فبقدر حمله هواه على اتباع ما جاء به النبي ﷺ يكون إيمانه، وفي قوله (تبعًا) ما يفيد المجاهدة والمصابرة؛ لأن مخالفة الهوى محتاجة إليهما؛ لشدة الداعي، ولزوم النفس للعبد.

وقد وعد الله من خالف هواه المخالف للكتاب والسنة بالثواب العظيم، الذي هو منتهى آمال الموحدين (الجنة)، وأنعم بها من مثوبة يعطيها ويمنحها الذي يستحق أن يخضع ويستسلم له وحده، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ سورة النازعات [٤٠].

إن من مقتضيات كلمة الإخلاص لا إله إلا الله محمد رسول الله الاستسلام لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وهذا لا يكون إلا بإطراح الهوى، والبعد عن التعصب؛ لأن فيه بعدًا عن المنهج الصحيح، وهدمًا للوحدة الإسلامية. ولقد عانت أمة الإسلام على مر عصورها من أتباع الهوى والتعصب المقيت لمذهب أو شيخ أو ...، وأول خلاف وقع في هذه الأمة، وأول كسر في باب وحدتها كان بسبب اتباع الهوى والتعصب المذموم، بل إن الدارس لخط سير الأمة على مر عصورها يرى ذلك جليًا واضحًا.

رابعًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

---

(١) انظر: تفسير الكشاف (١٠٠٧).

الأمر: الحض والحث، والمعروف: اسم لكل ما يعرف بالعقل والشرع حسنه، من قول أو فعل أو اعتقاد. وعكسه النهي، فهو: الزجر والتحذير عن كل قبيح[1]. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله من الدين، بل هو عمود بنائه وذروة سنامه، والشريعة المحمدية كمل بها دين الله؛ لتضمنها الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر، وإحلال كل طيب، وتحريم كل خبيث. وقد جعله الله تعالى شعارًا لأهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ سورة التوبة [٧١]، فكانت أمة الإسلام أنفع الأمم للناس، وأعظمهم إحسانًا إليه؛ لأنهم أمروا بكل معروف، ونهوا عن كل منكر، وكان ذلك منهم لكل أحد، ليس فقط لمن هم من أهل ملتهم، وبذلوا في سبيل ذلك مهج النفوس، فجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهذا كمال النفع للخلق[2].

وقد خلق الله الناس، فكانت سنته أن يخلقهم مختلفين في عقائدهم واستعداداتهم وإراداتهم، واستعداد النفوس على الاستمرار على الطاعة يختلف بحسب تفاوت الإيمان في القلوب، فحصل بذلك ابتلاء بعضهم ببعض.

إن الأمة الواحدة وإن وقع فيها الخطأ، وحصل القصور من بعض أفرادها، إلا أنها على يقين بأن السكوت عليه يزيده قوة وانتشارًا؛ ولذا حذر الله من ترك شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين أنه سبب به لعن بنو إسرائيل على ألسنة أنبيائهم عليهم السلام، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ، كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ

(١) انظر: المفردات (٥٦١، ٨٢٦)، تفسير السعدي (١٤٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٢١/٢٨).

﴿فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ سورة المائدة [٧٨، ٧٩].

فالسكوت على صاحب المعصية يزيده استمرارًا، ويجرئ غيره على فعلها، بل يفسد تصور الناشئ الذي ينشأ يرى تلك المعاصر تفعل بلا إنكار، فلربما عدها من غير المنكر، ولقد حذر الله من هذه النهاية في صورة ترك عقيدة الولاء والبراء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ سورة الأنفال [٧٣]، فيقع عند ذلك الفساد وتختلط الأمور وتفسد الأحوال، ويصبح لا يفرق بين الإيمان والكفر والطاعة والمعصية.

فجاءت الشريعة بتحذير أمة الوحدة والاجتماع من السكوت على المنكر، وجعلت ذلك سببًا في وقوع الاختلاف؛ فالقيام بشعيرة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتناصح من أخص خصائص الأخوة الإيمانية والوحدة الدينية؛ لأن فيه ترميمًا لما يحصل في بناء وحدة الأمة، بإعادة الشارد من أبنائها إلى حياضها، وسد لكل خرق يحاول مفسد أن يخرقه في سفينتها.

وفي الصحيح من حديث النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا"[(١)].

فبالتأمل في هذا الحديث من منظور موضوع الوحدة نلحظ فيه فوائد جمة، أشير إلى بعضها فيما يلي:

١- أن هذا التشبيه جاء في أبلغ صور البلاغة وأتمها، فأمة الإسلام مجتمعة، يقودها قائد

(١) صحيح البخاري، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة؟ رقم [٢٤٩٣].

واحد كما يقود السفينة ربان واحد، ومهما حاولوا خلاف ذلك وقع الخلف وحصل التفرق، وحق الغرق والهلاك.

٢- أن ركاب السفينة لهم اتجاه واحد، كما لأمة الإسلام اتجاه واحد، هو السير إلى الله.

٣- أن ركاب السفينة يجمعهم نظام واحد، كما لأمة الإسلام نظام واحد، هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٤- أن ما يصيب ركاب السفينة من عوارض، كالرياح مثلاً أو تكفأ السفينة بسبب الأمواج، يختلف بحسب اختلاف مواقعهم فيها، وكذلك أمة الإسلام أمة واحدة، ما يصيب أفرادها من عوارض وبلايا تكون بقدر مواقعهم من سفينة الدين.

٥- أن في الحديث تنبيه لحسن قصد من أراد خرق السفينة، وبيان لحسن تعامل أهل العقل معهم بحجزهم عن ذلك؛ لأن الهلاك لازم لهم جميعًا، ففيه دليل على وجوب رد المخالف، صيانة لوحدة الأمة؛ إذ مصلحة الوحدة تقتضي إلا يترك المسيء مهما كان قصده، مادام تصرفه يدخل الخلل على وحدتها، ويفسد فيها، وأن حسن قصده لا يمنع من أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فكيف بمن خبث قصده وساءت نيته.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج للوحدة، يحافظ عليها، ويحمي أفرادها من الخروج عنها. ولما كانت أمة الإسلام قائمة بهذه الشعيرة كانت على التوحد والاجتماع، لا يأنف حتى الأمير من سماع كلمة ناصح له آمر بالمعروف ناه له عن المنكر، فهذا خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ﷺ يعلن في خطبة خلافته أصول التعامل بين الحاكم والمحكوم، وأنها تقوم على التناصح والتآزر، فيقول ﷺ: "أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت

فقوموني ..."[1].

هكذا يعلنها ﷺ على الناس؛ ليرسم لهم طريق حماية الأمة من الخلاف والشقاق والمحافظة على وحدتها، وهذا يقودنا إلى سبب آخر من أسباب الوحدة:

خامسًا: الشورى:

خرج رسول الله ﷺ يوم بدر لا يريد قتالاً، وإنما خرج طالبًا لعير قريش، ولهذا لم يكن ﷺ متهيئًا للحرب ولا أصحابه ﷺ، فلما أنفذ الله أمره لحكمة أرادها تعالى في لقاء جيش الإيمان بجيش الكفر استشار النبي ﷺ أصحابهم في لقائهم، واستشارهم في الأسارى ببدر، واستشارهم يوم أحد، ويوم الخندق، بل كان منهجه ﷺ مشاورة أصحابه. ولكأني به ﷺ لو أمرهم بالأمر من غير مشورة لكانوا إلى ذلك مسارعين، حتى ولو تخطفتهم الطير، لكن رسول الله ﷺ يعلم أن النفوس جبلت على الأنس بمشاركتها حتى ولو بالمشورة، وأن التوحد بالرأي سبب لوقوع الاختلاف ومعول لهدم الوحدة، وبخاصة في الأمور التي تهم الجماعة. فاجتماع العقول الرشيدة على أمر وتوافقها عليه أقرب للسداد من انفراد عقل أو عقلين، فرسم ﷺ بذلك طريقًا ليقتدي به فيه، مع كونه مؤيدًا بالوحي؛ امتثالاً لأمر بالله بذلك، وتربية لأمته من بعده؛ لذا سار خلفاؤه من بعده على هذا المنهج الشديد، قال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ سورة آل عمران [١٥٩]، وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ سورة الشورى [٣٨]، فالله سبحانه يجعل الشورى من أخص خصائص الجماعة المسلمة، فيقرنه سبحانه بأس العبادة، وهو الاستجابة له تعالى،

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٩/٤١٥).

ويجعله بين شعيرتين هما أعظم شعائر الإسلام؛ إذ هما ركنًا من أركانه، وما ذاك إلا لأهمية الشورى في الإسلام، وكونهما من أساسيات الجماعة المسلمة، يوحد بينها، ويقوى أمرها، ويحفظها من الاختلاف والتفرق.

سادسًا: الشمولية:

بعث النبي ﷺ بين أهله وعشيرته بمكة، ولكن الأمر لم يرد الله له أن يستمر على ذلك، إذ ناصبه أقرب الناس إليه العداوة وهموا بقتله ﷺ، فأمره الله بالانتقال والهجرة إلى المدينة النبوية، انتقل ﷺ إليها، وأمضى باقي حياته في تبليغ رسالات ربه في قوم ليسوا بقومه، لهم من الطباع والعادات ما لم يكن لأهل المدينة، ومع هذا فإن النبي ﷺ والمهاجرين معه عاشوا في البيئة الجديدة، و لم يصادموا أهلها في عاداتهم التي لا تخالف الإسلام. يظهر ذلك جليًا من سيرته ﷺ، فمن ذلك قصة أكل الضب على مائدته ﷺ مع امتناعه عن الأكل منه، وبيانه وجه ذلك بأنه لم بأرض قومه بمكة[1].

قاعدة عظيمة مهمة تبين أن الإسلام دين يشمل كل الأخلاق الفاضلة والعادات الحسنة والطبائع التي لا تخالف الإسلام، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ سورة آل عمران [١٥٩].

ولقد فهم الصحابة ﷺ هذا المبدأ، حين تربوا عليه، فخرجوا ينشرون الإسلام في أصقاع الأرض، فلو خالفوا الناس وصادموهم في عاداتهم وطبائعهم التي لا تخالف الإسلام لانفضوا عنهم، ولما استجابوا لدعوتهم، كل ذلك مراعاة للوحدة الإسلامية، واهتمامًا بالأصل في الدعوة وهو تعبيد الناس لربهم سبحانه.

إن عموم رسالة النبي ﷺ دليل واضح على احتواء الإسلام لكل الطبائع والميول

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب: الأطعمة، باب: الشواء، رقم [٥٤٠٠].

والعادات لكل شعب من أهل شرق أو غرب لا تخالف شريعته. كما أنه وهو يدعو إلى الاجتماع والوحدة قد راعى علاقات الإنسان الاجتماعية بأهله وعشيرته، بل وحتى حبه لوطنه، لكنه وجهها توجيهًا سليمًا لا يصادم أصوله وثوابته.

المطلب الرابع: عناية القرآن بالوحدة والاجتماع:

من خصائص دعوة النبي ﷺ أن رسالته عامة للأبيض والأحمر والأسود، للعرب وغيرهم، قال ﷺ: "أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ... وكان النبي يبعث في قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة"(١)، لقد كان الأنبياء عليهم السلام يبعثون في أقوامهم، أما محمد ﷺ خاتمهم فدعوته عامة لكل بعده، وفي جمع الناس على نبي واحد وشريعة واحدة دعوة للتوحد والاجتماع حول هذه الرسالة الخاتمة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ سورة الأعراف [١٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ سورة سبأ [٢٨].

إن المتأمل في شريعة الإسلام عقائد وعبادات وأحكام يلحظ فيها ما يربي على الاجتماع والوحدة، ومن ذلك على سبيل المثال:

أ) في العقيدة: التوجه إلى رب واحد، واتباع رسول واحد، وانتهاج شريعة واحدة، وموالاة المؤمنين وحبهم في الله، أيًا كانت أجناسهم وأوصافهم، كل ذلك وغيره يربي المؤمن على الوحدة، ويعلمه الاجتماع.

ب) في العبادات: وهي كثيرة تظهر للمتأمل واضحة جلية، ومنها:

- الصلاة: وقتها في المكتوبة، أو في المؤقتة واحد، يشترك فيه الجميع، وفرضها كذلك على عدد واحد في ركعاتها يشترك فيه الجميع، وأداؤها كذلك إلى قبلة واحدة، كل

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا"، رقم [٤٣٨].

ذلك وغيره يشعر المؤمن بمعنى التوحد، ويملأ قبله بضرورة الاجتماع.

- الزكاة: تظهر أهميتها في بناء الوحدة من خلال توثيقها معنى التكافل بين أفراد الأمة الغني والفقير، فتكون رابطة حب وصفاء، ووحدة واجتماع، حين يلحظ الفقير عناية الأغنياء به، ويتذكر الغني حاجة الفقير وضرورة مد يد العون له، وهو في ذلك مأجور من الله في الدنيا والآخرة.
- الصيام: باتفاق المسلمين في وقته ابتداءً وانتهاءً، وما يحصل بسببه من شعور بمعاناة شرائح من المجتمع المسلم بمعاناة الجوع الدائمة، مما يثمر في نفس الصائم الحنو على دائمي الجوع، فيحمله على دوام الشكر لله، والمساعدة للمحتاجين، فيولد جوًا من الاجتماع، والشعور بمعنى الوحدة والأخوة.
- الحج: بكل شعائره؛ إذ هو المؤتمر العالمي للإسلام، يشعر المسلمون فيه بحقيقة التوحد والاجتماع، والانتماء إلى دين واحد، يجمع المختلف، ويوحد المفترق، لونًا وجنسًا وحالاً.
- الجهاد، وبر الوالدين، وصلة الرحم، ... كلها عبادة جليلة تربي على الوحدة والإتلاف.

ج) الأحكام: تنظيم أحكام الأسرة المسلمة، وترتيب الأدوار في داخلها. جانب المعاملات في الفقه الإسلامي، هذه وغيرها تشتمل على جوانب شتى من بناء الوحدة والمحافظة عليها، فرض الحدود لقطع النـــزاع ورد الحقوق، كلها تشعر بالوحدة، وتحذر من ضدها.

د) الولاية في الإسلام: وتعريف الحاكم المسلم بمهامه وواجباته، والمحكوم بحقوقه وواجباته، كلها إنما شرعت محافظة على وحدة الأمة واجتماعها.

المطلب الخامس: من ثمار الوحدة وفوائدها:

لقد جاءت شريعة الإسلام بكل خير؛ فالأمة متى تمسكت بشريعة ربها أفلحت وأنجحت، وما يصيبها من سوء فهو بقدر بعدها عن ذلك، فإن النبي ﷺ لم يمت حتى دل الأمة على كل خير، وحذرها من كل شر، قال أبو ذر ﷺ: "تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علمًا"(١)، والنصوص من الكتاب والسنة قد أشارة إلى جملة من ثمار الوحدة وفوائدها، مع ما يقف عليه المتأمل من ثمار وفوائد لها.

ومن الفوائد التي ذكرت في القرآن على سبيل المثال:

١- معية الله تعالى الخاصة، وولايته سبحانه لأهل التوحد والاجتماع فيه، فهو سبحانه يحوطهم بعنايته، ويحفظهم برعايته، وإن كادهم كل كائد، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ سورة الحج [٧٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ سورة الحج [٣٨]، فهو سبحانه منجيهم من هلكة، كما قال ﷻ: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الأنبياء [٨٨]، فكلما كانت أمة الأمة على التوحد والاجتماع كانت إلى أقرب، وفي الحديث قال ﷺ: "خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرفعت"(٢).

٢- أن أمة الإسلام حين تجتمع وتتوحد محفوظة من الضلال، قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

(١) معجم الطبراني في الكبير، رقم [١٦٤٧].

(٢) صحيح البخاري، كتاب: فضل ليلة القدر، باب: رفع معرفة ليلة القدر لتلاحي الناس، رقم [٢٠٢٣].

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ سورة البقرة [٢١٣]، وفي الحديث: "لا تجتمع أمتي على ضلالة"[١].

٣- نسبتهم إلى رسول الله ﷺ حين يجتمعون ويتوحدون على دينه وشريعته، وهي نسبة تشريف وتكريم، وكذلك نسبتهم إلى الصفوة من عباد الله، وهم أولو العزم من الرسل، لاتحاد الطريق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ سورة الأنعام [١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ سورة الشورى [١٣].

٤- وصف أمة الإسلام بصفات النجاة والفلاح، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، جزاء تسليمهم لأمر الله، الذي حملهم عليه إيمانهم وخوفهم من الله سبحانه، وعلمهم بأن ذلك خير لهم في دنياهم بلزوم الوحدة وقطع النـــزاع بينهم، وفي الآخرة بحسن مآلهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ سورة النساء [٥٩].

٥- نجاح الأمة ونصرها، في كل الميادين والساحات مرهون بوحدتها، فكلما اجتمعت وتوحدت ازدادت قوة ومنعة، وكلما تفرقت وتنازعت تبددت قوتها، وذهبت هيبتها، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة

---

(١) مسند الإمام أحمد، رقم [٢٧٢٦٧]، وانظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني (٢/٤٧٠).

الأنفال [٤٦].

* * *

الخاتمة

بعد التطواف في شيء من مناحي هذا الموضوع القرآني المهم، أحمد الله تعالى على ما تفضل به وامتن، ولا أدعي أني أوفيته قدرته أو استوفيته كله، مع شدة أهميته وعظم الحاجة إليه، فما ذكرته في هذه الوريقات إنما هو بحث مختصر اشتمل على نزر يسير من مفرداته وإشاراته سواء في القرآن أو في السنة، وهو نواة إن شاء الله – كما ذكرت في المقدمة – لبحث فيه موسع.

ومن خلال ما سبق في ثنايا هذا البحث نخلص إلى أهم النتائج والتوصيات فيما يلي:

أولاً: النتائج:

١- أن وحدة الأمة مربوطة بعودتها إلى أصل عزتها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، بفهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومهما حاول من حاول أن يجمعها على غيره، فلن يصل إلى إلا زيادة تفرقها وتشتتها.

٢- أن الوحدة التي دعى إليها جميع الرسل تقوم على أسس ربانية، عمادها توحيد الله تعالى والاستسلام له، لا تلتفت إلى رغبات نفسية، ولا إلى نزعات قبلية.

٣- أن المواضيع المرتبطة بوحدة الأمة، هي من أمس المواضيع التي تزداد الحاجة إليها يومًا بعد يوم، في عصر يسعى فيه الأعداء بكل إمكاناتهم لزيادة تفريق الأمة وتشتيتها.

٤- أن الواجب على الجماعات الإسلامية اليوم أن توحد جهودها، وأن تسود الرحمة والصفاء بينها بحسن العلاقة، وبذل النصيحة، وغفران الزلة، وأن يكون الحاكم عليها جميعًا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا أقوال الرجال، مستفيدة من أخطاء العقود

الماضية؛ لتقطع الطريق على الأعداء المتربصين بها جميعًا؛ فالهدف واحد، والجنة تسع الجميع.

٥- أن مجال التفسير الموضوعي يعد أرضًا خصبة وعينًا ثرة للدراسات الأكاديمية المتخصصة في القرآن الكريم.

ثانيًا: التوصيات:

العناية بموضوع وحدة الأمة، وتكثيف الدراسات فيه، فإني على يقين بأنه يمثل المشرع الحقيقي الضخم، الذي سيحيي الأمة، ويفسد كل مشاريع الأعداء لإضعافها والسيطرة عليها، مع مراعاة أن يسير تناول البحث في هذا المشروع المهم في خطين اثنين:

١- إعداد البحوث والدراسات التنظيرية، التي تبرز جوانب هذا الموضوع المختلفة.

٢- إعداد البحوث والدراسات العلمية، التي تعني بتقدم البرامج العملية، والحلول الواقعية للمشكلات حول هذا الموضوع.

هذا ما يسر الله تعالى لي، فله الحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، فبنعمته وحده تتم الصالحات.

* * *

المصادر والمراجع

- البداية والنهاية.
ابن كثير / تحقيق: عبد الله التركي / دار هجر / ط١ / ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم.
ابن كثير / تحقيق: سامي محمد السلامة / دار طيبة / ط١ / ١٤٢٢هـ.
- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.
عبد الرحمن السعدي / مؤسسة الرسالة، بيروت / ط١ / ١٤٢٣هـ.
- تفسير الكشاف.
جار الله الزمخشري / دار المعرفة، بيروت / ط١ / ١٤٢٣هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن.
الإمام الطبري / دار الكتب العلمية / ط١ / ١٤١٢هـ.
- الجامع الصحيح مع الفتح.
البخاري / تحقيق: محب الدين الخطيب / المكتبة السلفية / ط٣ / ١٤٠٧هـ.
- رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر.
محمد قطب / دار الوطن / ط١ / ١٤١١هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة.
ناصر الدين الألباني / المكتب الإسلامي / ط٤ / ١٤٠٥هـ.
- سنن أبي داود.
أبو داود / إعداد: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد / دار الحديث / ط١ / ١٣٨٨هـ.
- سنن الترمذي.
الترمذي / تحقيق: أحمد شاكر / المكتبة التجارية / ط بدون.
- شرح السنة.

البغوي / تحقيق: زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط / المكتب الإسلامي / ط٢ / ١٤٠٣هـ.

- صحيح ابن حبان.

ابن حبان / تحقيق: شعيب الأرناؤوط / دار الرسالة / ط٢ / ١٤١٤هـ.

- صحيح مسلم.

مسلم بن الحجاج / تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي / دار الحديث / ط١ / ١٤١٢هـ.

- في ظلال القرآن.

سيد قطب / دار العلم للملايين / ط١٢ / ١٤٠٦هـ.

- القاموس المحيط.

الفيروزآبادي / دار الكتب العلمية / ط١ / ١٤١٥هـ.

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس.

إسماعيل بن محمد العجلوني / تحقيق: أحمد القلاش / مؤسسة الرسالة/ بيروت / ط٤ / ١٤٠٥هـ.

- لسان العرب.

ابن منظور / دار صادر، بيروت / ط٤ / ٢٠٠٥هـ.

- مجموع الفتاوى.

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية / بدون دار / ط بدون.

- المستدرك على الصحيحين.

محمد بن عبد الله الحاكم / تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية، بيروت / ط١ / ١٤١١هـ.

- المسند.

الإمام أحمد بن حنبل / تحقيق: عبد الله الدرويش / دار الفكر / ط١ / ١٤١١هـ.

- المعجم الكبير.

سليمان بن أحمد الطبراني / تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي / مكتبة الزهراء، الموصل / ط٢ / ١٤٠٤هـ.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

محمد فؤاد عبد الباقي / دار الحديث / ط٣ / ١٤١١هـ.

- معجم مقاييس اللغة.

ابن فارس / تحقيق: شهاب الدين عمرو / دار الفكر / ط١ / ١٤١٥هـ.

- مفردات ألفاظ القرآن الكريم.

الراغب الأصفهاني / تحقيق: صفوان عدنان داودي / دار القلم / ط٣ / ١٤٢٣هـ.

- منهج الكتاب والسنة في تحقيق الوحدة الإسلامية.

محمد بن محمد الأنصاري / بدون دار / ط ١٤١٥هـ.

* * *